شخصية أبي العباس أحمد المقري من خلال كتابه "رحلة المقري إلى المغرب والمشرق".

الأستاذ خاين محمد
كلية الآداب واللغات بجامعة الشلف - الجزائر-

يثير البحث في شخصية أبي العباس أحمد بن محمد المقري، الكثير من التساؤلات، ومنها كيف لرجل استقطب كل ذلك الاهتمام في عصره سواء في بلده الجزائر أو حيثما أقام مشرقا ومغربا، وبكل ذلك التراكم المعرفي الذي خلّفه في عصر بدأت تشح فيه القرائح عن إنتاج المعرفة، وبتلك الشخصية الموسوعية التي أهّلته للتأليف في شتى الفنون والمعارف، وكذا المكانة التي اكتسبها لدى ذوي الجاه والسلطان والتي بوأته لارتقاء أسمى الوظائف العلمية والدينية، أقول كيف لرجل بهذه المؤهلات لا يرد اسمه إلا على شكل إحالات في هوامش الكتب، ولا يحظى بمثل ما حظي به أقرانه من الدرس والتحليل لتراثه الفكري، فكل من كتب عن المقري عدا كُتَّاب التراجم ممن عاصر المقري أو جاء بعده لم يوله ما يستحقه ذلك الزخم الفكري الذي خلفه، فنجد في مؤلفات تاريخ الأدب العربي إشارات عابرة لا تفي بالحاجة ولا تلبي المقصود، في حين نلفي أن عُدّة هؤلاء واعتمادهم هو كتاباته مثلا عن تاريخ الأندلس الثقافي والفكري.

إذ نجد على سبيل التمثيل لا الحصر أن شوقي ضيف لم يخصص له حين كتب عن أدب المغرب العربي في عصر الدول والإمارات ضمن سلسلته الشهيرة في تاريخ الأدب العربي إلا بضعة أسطر

في حين نراه يخصص لمن هم أقل شهرة وشأنا منه صفحات بأكملها، ومما كتبه عن شاعرية المقري: "...وتلاهم أحمد المقري صاحب نفح الطيب المتوفى سنة 1041 وكان يعاصره يحي بن أبي راشد وله أشعار في الجهاد وفي وصف مدينة تلمسان". إذ اكتفى بذكر اسم المقري وتاريخ وفاته، أما موضوعاته وأغراضه ومعجمه وتأثيره فيمن جاء بعده، وشاعريته، وغير ذلك من الجوانب التي تحتاج إلى التحليل فقد أهملها على الرغم من توفر المادة النصية.

وهو يخصص له فقرة في معرض حديثه عن كتّاب التراجم والسير، أهم ما فيها قوله: "...وهناك كتابان لا يقلاّن نفاسة عن كتاب البستان لابن مريم بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا، هما أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبه مما يحصل به ارتياح وارتياض، وكتاب نفح الطيب في أخبار الأندلس وابن الخطيب لأحمد بن محمد المقري المتوفى سنة1041/1632... بحيث يصبح الكتابان موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ"..

ونجد أن المادة النصية التي اعتمدها شوقي ضيف في ثنايا هذا الكتاب كانت كتابات المقري بشكل لافت، ومع ذلك فهذه هي كل الإضاءة التي سلّطها على تراث المقري.

وقبله عامل كارل بروكلمان المادة النصية للمقري بأقل مما عاملها به شوقي ضيف، بحيث لم يرد ذكره إلا على شكل عناوين مصادر وبالأخص نفح الطيب في معرض التأريخ للأدب الأندلسي، وفي الحواشي التي وضعها المترجم، وقلّ مثل ذلك في كل من أرّخ للأدب العربي سواء في المشرق أو المغرب على اعتبار أنّ الرجل عاش فيهما معا، فحتى إحسان عباس محقق كتاب نفح الطيب، لم يشر إلى المقري في كتاب "فن السيرة" لا من قريب ولا من بعيد مع أنه من أشهر كتّاب السير، وقد أطنب في الحديث عن كتاباتهم.

من ههنا ارتأينا أن نخصص هذه الورقة البحثية لبنية الشخصية المقرية من خلال كتابه الذي ظهر إلى الوجود في الفترة الأخيرة والموسوم بـ "رحلة المقري إلى المغرب والمشرق" مركزين

على الشخصية الموسوعية للمقري المتجلية ملامحها من خلال مخاطباته المختلفة والمبثوثة في ثنايا الكتاب المذكور، وكذا عبر إجازاته الكثيرة لأعلام عصره، إضافة إلى ما يبسطه الكتاب عن المقري المتدين في غير تزمت، المتواضع مع أقرانه، اللبق في تعامله مع ذوي الجاه والسلطان، وتركنا عامدين الترجمة لحياته إلا ما جاء عفوا في معرض تجلية جوانب الشخصية المقرية أو أثناء التعريف بالكتاب.

التعريف بالكتاب: إن هذا الكتاب هو في الأصل مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر مسجل تحت رقم3191. وهو واحد من بين مجموعة من المخطوطات التي قامت حفيدة المستشرق الفرنسي جورج ديلفان (G.DELPHIN) بإهدائها إلى سفارة الجزائر بباريس، والتي بدورها حوّلتها إلى المكتبة الوطنية. وحسب ما أورده المحقق فإن نسخة المخطوط قد آلت إلى هذا المستشرق سنة 1898 حسب ما يستشف من التوقيع الذي حمله المخطوط على صفحته الخارجية، وهي النسخة الوحيدة المعتمدة في التحقيق.

يقع المخطوط في 66 ورقة [131صفحة]، يقول عنه المحقق إنه مكتوب بخط مغربي واضح عموما، على خلاف وصف سميرة انساعد التي اطّلعت على المخطوط في الموضع المذكور، إذ ذهبت إلى أن المخطوط في حالة سيئة وصعب القراءة.

يؤكد المحقق في موضع آخر بأنه ليس ثمة شك في أن الكتاب ليس من وضع أحمد المقري، من منطلق أنه لا تخلو ورقة أو صفحة من صفحاته من ذكر المقري أو الإشارة إليه، إما بتوقيعه أو بوساطة الرسائل التي كانت تصله من أعلام عصره، مغربا ومشرقا، والتي أثبتها في متن هذه الرحلة، وعن هذا الكتاب يقول المحقق: "ولم أعثر على كتاب بهذا العنوان ضمن قائمة مؤلفات المقري التي وضعها مترجموه القدامى والمحدثون، كما انعدمت الإشارة إلى أي عنوان في ثنايا هذا الكتاب من طرف المؤلف". إلا أننا وجدنا أبا القاسم سعد الله يشير إلى رحلة المقري صراحة في قوله: "...وهكذا لم يبق لنا سوى ثلاث

رحلات تناولت القدس بتفاوت وتباين في الاهتمام، وهي رحلة المقري ورحلة العياشي ورحلة الزياني ونريد أن نقتصر هذه المرة على الرحلة الثانية" ، ويقصد بها رحلة العياشي، كما يفهم من كلامه بأنه سوف يخصص عملا آخرا للرحلتين الباقيتين، وقد جاء حديثه عن رحلة المقري في معرض حديثه عن الرحالة المغاربيين الذين تعرضوا لوصف مدينة القدس – فكّ الله أسرها– وهو الأمر الذي يجعلنا نتساءل إن كان أبو القاسم سعد الله قد اطّلع على الكتاب الذي وضعه المؤلف عن رحلته إلى المغرب والمشرق أو أنه لم يطلع عليه، وإنما يريد أخبار الرحلة في مؤلفات أخرى كنفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وأخبار وزيرها لسان الدين بن الخطيب، خاصة وأن المؤلف قد ذكر أخبار رحلاته وترجم لحياته في باقي أعماله، والذي يدفعنا إلى هذا التساؤل هو تأكيد المحقق على عدم إشارة لا القدامى ولا المحدثين إلى كتاب الرحلة هذا.

إضافة إلى ما سبق ذكره ألفينا سميرة انساعد تقول عنه إنه تحت عنوان "رحلة في المشرق والمغرب"، في حين نجد أن المحقق يقول إن المخطوط مسجل تحت عنوان "رحلة المقري إلى المغرب والمشرق "، ضمن قائمة المخطوطات التي سلمها المستشرق ديلفان، حتى وإن راودته الشكوك في صحة العنوان، بمعنى أننا بإزاء ثلاثة عناوين: الأول أثبته المحقق، والثاني أشارت إليه سميرة انساعد، والثالث ذكره أبو القاسم سعد الله "رحلة المقري".

يبدو أن الذي أثار الشك حول صحة العنوان هو طبيعة المخطوط ذاته الساقطة بدايته ونهايته إذ جرت عادة النسّاخ والمؤلفين أن يذكروا فيهما معلومات فنية عن العمل الذي هم بصدد كتابته كعنوانه وتاريخ الانتهاء من تأليفه.

يحوي الكتاب معلومات على غاية من الأهمية على الرغم من بدايته ونهايته المبتورتين، وذلك راجع إلى أن المؤلف لم يعتمد في مؤلَّفه هذا ترتيبا منطقيا أو كرونولوجيا يخلّ بترتيب محتويات الكتاب عندما يبتر في أي

جهة كانت، فهو عبارة عن مراسلات ومخاطبات وقعت بين المؤلف وأعلام عصره موثقة بالمكان والزمان اللذين صدرت فيهما وهذه المعلومات تتعلق بحياة المؤلف، إذ تزيح الستار عن بعض الجوانب التي لم يشر إليها في كتبه الأخرى، أو أغفل مترجموه التعرض لها، أو أخطأوا فيها وبهذا يكون الكتاب قد جاء ليسد فراغا ويصحح أخطاء وقع فيها هؤلاء المترجمون، ومنها أن عدد زوجاته اثنتان، وأنه لم يرزق بولد ذكر، وفي مؤلفات بعض من ترجموا له أنه لم يزر مدينة الجزائر أثناء رحلته المشرقية. كما أنه من خلال هذا الكتاب يمكننا أن نتعرف على الحياة الثقافية والأدبية لعصر المؤلف.

فكتاب الرحلة هذا يختلف عن الرحلات التي عرفناها كرحلة ابن بطوطة، وابن جبير، ورحلة العياشي، والورتيلاني... حيث ينبني السرد الرحلاتي على وصف المواقع التي زارها الرحالة، والإسهاب في الحديث عن جغرافية المكان، وطبائع الناس في تلك البلاد ومعاشهم وعاداتهم، وانتقاد السلوكيات المشينة التي يتحلون بها، وكذا ذكر الأهوال والمشاق التي لاقاها الرحالة ورفقته في الطريق، والأهوال التي كان عليهم أن يواجهوها برا وبحرا، وما إلى ذلك من المشاهد والوقائع، فالمقري ركز في كتابه على وصف الحياة العقلية والأدبية لعصره، وأغفل الحديث عن الجوانب السياحية التي يمكن أن يتصف بها أدب الرحلات، فلولا بعض العبارات التي كانت تشير إلى التنقل والتجوال لانتفت عن الكتاب صفة السرد الرحلاتي، والتي كانت ترد عَرَضا، مثل قوله في أكثر من موضع: "لما حللت الشام 16 رمضان المعظم سنة 1040... وكتب إلي بملبوس أهداه شكر الله صنعه..." ؛ "وقلت وأنا بالصالحية بمحضر الأصحاب..." ؛ "ولما أزمعت الرحلة إلى الحجاز، واستأذنت ملك المغرب في الإذن..." ؛ "وكتبت بأرض الخليل بديهة..." ؛ "ولما حللت محروسة الجزائر خرجنا يوم الخميس 25 ذي الحجة 1027هـ صحبة جماعة من الأعيان منهم مفتي الحنفية الخطيب المولى محمود بن الحسين بن قرمان الشهير، وكان ذلك برأس تافورة...".

فعدا مثل هذه النتف وأمثالها لما حملت هذه النصوص أي دلالة على الرحلة، إضافة إلى انعدام التماسك النصي بين أجزاء الرحلة، فهي عبارة عن أشتات متفرقات لا جامع بينها زمانيا أو مكانيا. ويعطي الكتاب صورة ناصعة عن المكانة العلمية الراقية التي احتلها المقري بين أعلام عصره حيثما حل وارتحل، وذلك من خلال المراسلات المتبادلة بينه وبين هؤلاء الأعلام، هذه المكانة التي أثبتتها الكتابات التاريخية التي ترجمت لحياته، أو تلك التي تعرضت للعلاقة بين المشرق والمغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، فقد جاء في خلاصة الأثر للمحبي أن المنزلة التي وصل إليها المقري في دمشق حينما زارها، وأملى في جامعها الأموي صحيح البخاري تحت قبة النسر، لم يصل إليها غيره من العلماء الوافدين على دمشق.

وعن هذه الواقعة نجد المحقق يذكر في تقديمه للمخطوط أن المقري ختم إملاء صحيح البخاري في التاسع والعشرين من رمضان سنة 1040، مستدلا على هذا التاريخ بمخاطبات وقعت بين المؤلف وبين أحمد بن شاهين أثبتها في كتابه، يقول فيها: "لما حللت الشام 16 رمضان 1040هـ، وكان اليوم جمعة، خرج للقائي جملة كبيرة من الأعيان إلى داريّا وكان من جملتهم أوحد العصر المولى أحمد الشاهيني، فأرسل إلي من داريا بهذه الأبيات إلى سعسع فوافتني بعد الخروج من سعسع". ثم يذكر تلك الأبيات، إلا أننا وقعنا في الكتاب على مقطوعة شعرية كتبها الشيخ أحمد الكلشني عن ختم المؤلف الدرس يقول فيها:

إن الإمـام المقـري أحمد قـــد
حـاز أنواع العلوم والحكم
روى أحاديث البخاري كـــما
قال النبي مصطفى وما كتم.
ومن صحيح النقل في إســناده
مسلسل عـن الـرواة مغتنم.
في الجامع الكبير في دمشـــق
قد أجـاد إذ أفاد فيما رسم.
وكان من صيام الشهر قد مضى
تسع وعشرون بـأنواع النعم.

بالعنبر الوردي والمسك ذكا

تدريسه الزاهي بتاريخ ختم.

فقد استنتج المحقق تاريخ ومكان الختم من هذه المقطوعة وذلك باعتماده على حساب جمل المغاربة في قوله "ختم" التي تعني 1040، من منطلق أن الخاء =600، التاء=400، والميم =40، وبذلك يصير المجموع 1040. ولكنّا وجدنا المحقق في الحاشية التي وضعها مترجما فيها لأحمد الكلشني يقول عنه: "هو محمد بن سعد الكلشني نزيل دمشق، كان من أدباء الصوفية، له أخبار عجيبة، وصاحب نوادر وآداب، وكان ينظم الشعر، توفي بدمشق سنة 1037هـ"، فكأني بالمحقق يدحض قوله الأول عندما أثبت تاريخ وفاة الكلشني هذا. وعليه يكون تاريخ وفاة الكلشني غير صحيح، ما دام المؤلف ذاته يؤكد حلوله بالشام في التاريخ المذكور، وما دام حساب الجمل المثبت في المقطوعة صحيحا سواء بحساب المغاربة أو المشارقة، ومما رجح عندنا هذا الرأي نقل المحقق عن المحبي في خلاصة الأثر الذي نقل عنه كذلك أبو القاسم الحفناوي، في موضع آخر، حيث يظهر فيه التضارب بين أول النص وآخره: "ثم رجع إلى مصر في صفر سنة 1039، ودخل القدس في رجب من تلك السنة، وأقام خمسة وعشرين يوما، ثم ورد منها إلى دمشق فدخلها في أوائل شعبان... ونزل عن الكرسي، فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار سابع عشري رمضان سنة 1034"، إذ ذكر في أول النص أنه دخل دمشق في أوائل شعبان 1039 وفي آخره قال في سابع عشر رمضان 1034، وقد أشار محققا نفح الطيب إلى هذا التضارب الحاصل في التواريخ عند المحبي، كما نبها إلى خطأ يكون قد حصل من الناسخ في مقدمة نفح الطيب إذ يثبت المؤلف في أول النص أنه دخل دمشق سنة 1039، وفي ثناياه يقول في 1037، والتاريخ الأخير يثبته صاحب شجرة النور الزكية، ونحن نرى أن الأمر يتعلق بالرحلة الأولى، وحديثنا هنا يدور حول رحلته الثانية التي أثبتها في كتاب الرحلة، وهي التي حصلت سنة 1040.

2- بنية الشخصية المقرية: يجمع

من ترجم لأبي العباس أحمد المقري على الشخصية الموسوعية التي حازها هذا العالم الفذ، فقد برع في العلوم التي كانت منتشرة في عصره، قال عنه المحبي: "حافظ المغرب، جاحظ البيان، وممن لم ير نظيره في جودة القريحة، وصفاء الذهن، وقوة البديهة. وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ومعجزا باهر في الآداب والمحاضرات"، ولا نجد أحسن من أعماله ومؤلفاته تخبرنا عن شخصيته والعلوم التي تبحر فيها فتكاملت في بناء شخصيته، فقد أجمعت الرسائل والخطابات التي كانت ترد إليه على وصفه بكل أوصاف التبجيل والتقدير، والإشادة بعلمه، ومما زاد من إعظام الناس له هو تلك المواقف الرائعة التي وقفها أيام المحن والشدائد التي حلت بالأمة نتيجة استيلاء الأسبان على مدينة العرائش في الرابع من رمضان 1019هـ، إذ طُلب من العلماء أن يفتوا بجواز تسليم السلطان المدينة للعدو إنقاذا لأبنائه الرهائن لدى العدو الكافر، فرفض العلماء الإفتاء إلا واحدا وهو محمد بن القاسم بن القاضي الذي قتلته العامة فيما بعد جزاء فتواه المشؤومة تلك، ولاذ المقري إلى الصمت إبراء لدينه وصونا لدمه، وهو يومها إمام القرويين وخطيبها المفتي، فقدر له الناس موقفه ذاك، وظهر الرجل بذلك أكثر حنكة ونضجا في تعامله مع الأحداث السياسية الكبرى.

وللتدليل على المكانة العالية التي تبوأها المقري في بلاد الشام نسوق هذه القصة التي حكاها أبو سالم العياشي في رحلته ومؤداها أنه لما زار غزة قصد أحد علمائها واسمه عبد القادر الغصين فأسكنه بتوصية من شيخ آخر يدعى النابلسي في مكان لائق بمدرسته، وأخبره، أن هذا المكان وقف على الغرباء، ويعود الفضل في ذلك إلى أحمد المقري صاحب نفح الطيب، فهو الذي دخل على أمير غزة ونصحه ببناء المدارس والمساجد والإحسان إلى أهل العلم، وأنه لم يخرج من مجلسه حتى أمر بإحضار القاضي وكتب وثيقة بذلك، إضافة إلى أخبار يستنتج منها ما كان للرجل من احترام وتبجيل في بلاد الشام كلها وليس دمشق وحدها فقط، مع العلم أن هذا الذي حصل وقع بعد وفاة المقري بعقود، فقد غادر العياشي

حسب الرحلة غزة في الثاني عشر من صفر سنة 1074.

سنكتفي من بين هذه المراسلات وما أكثرها التي تضمنها كتاب الرحلة بخطاب التوصية الذي كتبه ملك المغرب إلى شريف مكة يوصيه فيه خيرا بالمؤلف، لما عزم على الرحلة إلى المشرق قاصدا بيت الله الحرام للحج، إذ نلفيه يصف فيه المقري بأحسن الأوصاف وأجلها، بل يرى فيه هذا السلطان ما لم يره في غيره: "الحافظ البحر المتفنن الذي إذا نحا النحو ترجل الفارسي بين يديه، وطار ابن عصفور حذرا من البازي المطل عليه، وإذا كتب أغض ابن مقلة على قذاه... الرحالة الراوية، المحدث النحوي، البياني الأصولي، الكلامي التاريخي، الأدبي الإخباري، الحجة أبو العباس أحمد ابن الشيخ المرفوع المقدس أبي عبد الله محمد المقري".

وعلى الرغم مما في النص من الصنعة والتكلف، والمبالغة في الوصف على طريقة الكتابة السائدة في ذلك العصر، مع العلم أن هذه المبالغات وصلت إلى أشد الأغراض الأدبية ارتباطا بالنفس البشرية، كالرثاء مثلا، فإنه يعطينا صورة عن المكانة العلمية التي احتلها المقري عن جدارة واستحقاق، إضافة إلى ذلك يوضح منزلة الكاتب عند هذا الملك ويدحض الأقوال التي راجت بشأن المقري بأنه خرج متخفيا من المغرب، وهذا التوضيح يدخل لا شك ضمن إعادة قراءة تراث المقري بغية استجلاء الحقائق العلمية والتاريخية المرتبطة بحياته، كما أن هذا الخطاب يشير إلى العلوم التي برع فيه المقري وتفوق، فهو راوي الأحاديث النبوية الشريفة، ونحوي وعالم بأصول الفقه، وعالم كلام، ومؤرخ، وكاتب سير وتراجم، وأديب، وبلاغي والمطلع على هذا الكتاب يلحظ تجليات هذه العلوم فيه، وجل من راسله يعترف له بهذه القدرات العلمية.

إجازاته العلمية ودلالاتها: يحمل الكتاب موضوع الدراسة بين دفتيه ما يزيد عن العشرين إجازة علمية، كان المقري قد أجاز بها علماء عصره مشرقا ومغربا، بالرواية عنه في شتى

العلوم التي نبغ فيها، وقد وردت هذه الإجازات نظما ونثرا، وخاصة في علم الحديث، وحتى ندلل على القيمة العلمية لهذه الإجازات، تفرض علينا المنهجية العلمية طرح المصطلح للتدارس فهو يطلق في عمومه على من أذن له شيخ ما عالما كان أو طالبا أو مريدا بالرواية عنه، كأن يقول له مثلا: قد أجزتك بكل مروياتي، بمعنى أن هذه الإجازة قد تكون خطا أو لفظا في علم من العلوم، ويشترط في المجيز أن يكون عالما قد طبقت شهرته الآفاق، كفاءة، وسبقا علميا وسمعة حسنة، وهذا ما يعني أنها شكل من أشكال الشهادات العلمية التي تسلمها المؤسسات العلمية والأكاديمية في وقتنا الراهن.

فولوج عالم هذه الشخصية من باب الإجازات العلمية يفصح عن اعتراف من المجازين بنبوغه وتفوقه العلمي، وهم من هم جلالة قدر وعلو منزلة من أمثال خطيب الحرم تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المالكي، والتي مما جاء فيها: "...وها أنا أجزته بكل ما رويته وبالقصور معلما على شروطه التي قد قررت لدى ذوي الفن وما قد حررت مثل موطأ الإمام مالك، عمدة كل مقتف وسالك فقد قرأ عليّ منه صدرا، وهو بما قد نال مني أدرى، كذا الصحيحان، وباقي الستة مع المساند التي في السنة، وكل ما صنفته من النثر مع النظم قِلُّه والكثرة، وما رويت عن شيوخي طرا، والله أرجو أن ينيل الأجر. وأحمد المقري خط على عجل مفتقرا لربه عزّ وجلّ". فقد حوت هذه الإجازة إذنا من المجيز للمجاز بالرواية عنه بالشروط المتعارف عليها بين علماء ذلك العصر موطأ الإمام مالك، وصحيحي البخاري ومسلم، وأصحاب السنن الستة، وكل ما صنفه المؤلف شعرا ونثرا قليله وكثيره، فالإجازة إن كانت دلالة على رسوخ قدم العالم فيما أجاز، فهي كذلك تأكيد مصداقية، وإعلاء لشأن للمجاز، وتصدر للتدريس والإفتاء وهو ما يعني أنها شهادة علمية يسمح لحاملها بالتصدر لمجالس العلم، وهو ما يفسر لنا استجازة بعض العلماء المقري. كما سيرد بيانه، وللتدليل على القيمة العلمية للإجازة نسوق هذا النص الذي أورده الحفناوي، عن تشدد أحد العلماء

في تسليم إجازته إلا لمن تبحر في العلوم، فكان الطلبة يفتخرون بأنهم من مجازيه: "وكان لا يتسامح في الإجازة بوجه، ولا يمكّن منها إلا بعد التحصيل، ومن ظفر من الطلبة بإجازته فقد ظفر بالغاية القصوى، ووصل إلى المرتبة العليا.

ونلحظ كذلك من خلال هذه الإجازات الحظوة التي كان يتمتع بها والسمعة الطيبة التي اشتهر بها، حتى إن بعضهم راسله مستجيزا بنظم تقطر منه آيات التبجيل والتوقير:

يا نخبة الفقهاء والفضلا
ونتيجة الأعلام والكبراء
وهو الوسيلة لي والمعظم قدرها
إنسان عين السادة العلماء
هذا محبكم العفيف ببابكم
إذ أنت حقا ملجأ الضعفاء
جودوا بحقكم له برجائه
لا زلتم في الخير والنعماء

وكتب بعدها نثرا يطلب به الإجازة مني حفظه الله.

قدراته العقلية وحضور بديهته:

من تجليات الشخصية الموسوعية للمقري التي تفصح عن ذكاء حاد وحضور بديهة، ودقة في الملاحظة هو إجاباته عن الألغاز التي كانت تقدم له على سبيل الامتحان، والتي تضمنها الكتاب، على اعتبار أن هذا اللون قد ولع به المتأخرون بدءً من القرن السابع الهجري، حتى أن أبا الحسن بن الجياب المتوفى سنة 749 رئيس كتاب الأندلس، وشيخ لسان الدين بن الخطيب قد خصص لها بابا في ديوان شعره، وفي هذه الألغاز كما ينقل الرافعي عن السيوطي ما قصدته العرب، وفيها ما قصده أئمة اللغة، كما يوجد من بينها ما جاء عفوا لم يرد به التلغيز وقد تم استثماره على شكل ألغاز.

ولا شك أن الألغاز التي طرحت على المقري من اللون الثاني الذي قصدته أئمة اللغة، فقد ألغز له في ألفاظ التيه، وأمس، والقوس، والصنبر، ورمضان، وتمكن من حل تلك الألغاز، وسنعرض لواحد منها على سبيل التمثيل: "وكتب إلي الأخ في الله تلميذ مولاي العم (يقصد عمه سعيد المقري) وسميه الفقيه المفتي بالجزائر المحروسة حفظه الله ملغزا

(يقصد سعيد قدورة):

أبـــدرا بدا من غربنا بجزائر
وبحرا عبابا مـن نفيس ذخائر
أحاجيك يا فخر الزمان بلفظة
أتت في مقام الرفع دون محاذر
فابدل بالخفض المغير وصفـه
ولا سبب يبدو لرؤيـة ناظر
فليس مضاف أو بحرف يجـره
ولا تابع المخفوض أو بمجاور
وليس للحكي فيه قبل جره فرد
فأنت اليوم اليوم زين الحاجر.

فأجابه بأبيات نقتطع منها ما حملت الإجابة:

فقلنا أردت الصنبر وهي لفظة أتت
بعـد حـين هـاج في شعر ماهر
ومـن يتـوهم فليقف مـع نقـــله
ويبدل بخفض الظرف رفع المظاهر
ونبه للتحقيق مـــن كـان ذاهـلا
عن القصد حتى صار أوضح زاهر
فهذا جـواب العـبد واعـذره إذ
غدا فـؤاده وطرفه بين ساه وساهر.

وقد تجلت تلك القدرات العقلية التي حبا الله بها المقري أيضا في الأسئلة التي طرحت عليه حول كتابة الأحرف مقلوبة، وفي شرحه لمنظومة ألغزت في أفعال القلوب، وفي التنظير النحوي وفي تصديه للإفتاء في مسائل محتملة الوقوع على طريقة مسائل التمرين التي شاعت في تلك العصور في الفقه والنحو، وفي التأريخ بحساب الجمل لدى المغاربة، وغير ذلك من المسائل التي كانت تطرح في مجالس سمر العلماء وفي مراسلاتهم.

تدينه وتواضعه وتفتحه: يجلي كتاب الرحلة هذا جوانب عظيمة في حياة المقري وبنية شخصيته، فهو مع كل هذا الجاه الذي وصل إليه والمراتب التي ارتقاها عبر مساره العلمي إلا أنه كان متواضعا إلى أبعد الحدود، نلمس ذلك في مراسلاته: "سادتنا لا تغفلوا الخويدم من أدعيتكم النافعة مظان الإجابة، وأخلصوا له من ذلك ما يعود عليه بالإقلاع عن الآثام والرجوع إلى الله والإنابة "، فنراه هنا لا يصف نفسه حتى بالخادم بل بالخويدم، كما يتجلى تديّنه في قوله عن نفسه واصفا لها بالراجية الإقلاع

عن الآثام، والعودة إلى الله، وقد حملت جلّ نصوص الكتاب الدلالة على هاتين الصفتين: التدين والتواضع، إضافة إلى كثرة القصائد التي يمدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي أعقاب ختمه لصحيح البخاري في مواقع عدة، إذ كان يتوجه إلى الله بالابتهال بأشعار تنبئ عن سريرة طيبة ومعدن أصيل، ونقرأ تواضع العلماء الذي امتاز به في إجازاته فيبدي فيها أنه ليس أهلا لأن يجاز فما بالك أن: يجيز، ويعتذر: "يقول العبد القاصر فلان أخذ الله بيده يوم لا منجي سواه ولا عاضد ولا ناصر، إن الأخ في الله الفاضل السري اللوذعي الدراكة الفهامة سيدي الشيخ محمود ابن مولانا العلامة الشيخ العمادي الخليلي زاد الله في معناه وعمّر بالمسرات مغناه، لما التقيت معه بأرض الخليل، وتجاذبنا طرفا من الفنون فظهر فضله وإن كان النهار لا يحتاج إلى دليل، رغب مني أن أجيزه لظنه أني من رجال هذا المجال، فاعتذرت بأن البضاعة مزجاة، فكأنه ما قبل عذري الوجيز، وأن لمثلي أن يجاز فضلا أن أجيز، ولكني قد أجبته رجاء صالح الدعاء منه في البقاع المقدسة، وخصوصا عند روضات الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، حيث المباني على التقوى مؤسسة".

مع هذه الشخصية المتدينة نلمس فيه تفتحا وخفة روح إلى درجة أنه ينقل لنا أبيات أحد الشيوخ في ذم الزواج وبها كلمات نابية، وفي موضع آخر يبدي لنا المقري حبه للموسيقى، واستماعه للغناء من غير تحرج، وقد وقع هذا في جلسة مداعبة مع أحد الأعيان، كما يذكر في موضع آخر زفافه بجارية اشتراها.

كما يرينا الكتاب تلك الشخصية الناضجة التي يحسن صاحبها التعامل مع الملوك والحكام، واللباقة في مخاطبتهم، وكسب ودهم من غير مذلة، ونستشف هذا التفتح والتسامح في شعره الغزلي، إذ لا يتحرج من نظمه وتدوينه، وروايته عن غيره وهو الفقيه الإمام الحجة وإلى جانب هذه الأخلاق الفاضلة نجد في كتابه عن رحلته إلى المغرب والمشرق نماذج راقية للأمانة العلمية، فهو يشير إلى المؤلفات التي نقل عنها وينسب ما ليس له لأصحابه

دون تحرج، نلمس ذلك في مواضع عديدة من الكتاب.

ما نخرج به بعد هذه الإطافة السريعة في كتاب "رحلة إلى المغرب والمشرق" للمقري أنه خرج عن الأعراف المتواضع عليها في هذا النمط من الكتابة والتأليف، والنمذجة الخاصة بالسرد الرحلاتي، التي سبق الإشارة إليها، وذلك بالتركيز على إبراز الجوانب الفكرية والعقلية السائدة آنذاك، ومن ثَمّ صار الكتاب مصدرا مهما للتأريخ لتلك الحقبة التاريخية، مثل بقية مؤلفات المقري، كما يمكن للباحث أن يستخلص من خلال المراسلات التي أثبتها المؤلف لأعلام عصره خصائص الكتابة نثرا ونظما لذلك العصر، إضافة إلى هذا فالكتاب يفصح عن شخصية علمية موسوعية، تتسم بالروح والأمانة العلميتين، ملمة بدقائق علوم ذلك العصر.

ويظهر لنا الكتاب المقري رجل الدين غير المتزمت، الذي يحظى باحترام أعلام عصره مغربا ومشرقا. ومما يؤخذ على الكتاب –وقد أشار إلى ذلك من تعرضوا له– انعدامُ التماسك النصي بين أجزائه وفقراته، وقد أشرنا من قبل إلى أنه جاء في صورة أشتات متفرقات، وقد يرجع ذلك إلى كونه مسودة كتاب كان المقري قد عزم على وضعه لكن الأجل عاجله قبل إتمامه، ومرجعيتنا في هذا الاستنتاج هو بعض نصوصه التي تعود إلى ستة أشهر فقط قبل وفاته. ■

ملاحظة: للموضوع مراجع